# نبذة من سيرة الشيخ رحمه الله

ولد الشيخُ رحمه الله في شَقْراءَ(*) من قُرى نَجْد، في بَدْء النِّصف الثاني من القرن الرابعَ عشرَ من الهجرة، في بيئة تَسُودُها الحريةُ والبعدُ عن قُيود المدنيّة الحديثة، كان العلمُ فيها فاشيًا والعلماءُ متوفِّرون له، والهمَمُ منحصرةٌ في ابتغاء ما يُرضي الله تعالى من تعلُّم العلْم النافع والعملِ به ونشرِه، فكانت المساجدُ والمجالس عامرةً بدروس العلم طَوالَ اليوم في مختلِف الفنون. وتتلمَذ على عُلماءَ ربّانيين، غرسُوا في نفسه أدبَ الإسلام ومعانيَ الشرع المطهّر قولًا وعملًا، بل كان هذا غرسَهُم في نفوس عامّة الناس فكيف بخاصّتهم؟!؛ إذ كانت كتبُ الأدب والعلم تُقرأ بين الأذان والإقامة، مثلُ كتاب (الآداب الشرعيّة) لابن مفلح، (والتبصِرة) لابن الجوزيّ، و(تفسيرِ ابنِ كثير)، و(رياضِ الصالحين)، و(السيرةِ النبوية)، مع ما يُشاهده من قُدواتٍ في العلم والزُّهد والورع، من أُسرته وممن حولَهُ من الصُّلحاء والفُضلاء وأرباب التجارِب؛ فقد كانوا على مستوىً عالٍ من الأدَب والتعبُّد والصبر والتحمُّل، وما كان عليه البيتُ الزكيُّ من قيامِ الليل، وكثرةِ الذِّكْر وختمِ القرآن، فنشَأَ معتزًّا بشرع الله تعالى، عارفًا ربَّهُ، متعرِّفًا إليه، مُدرِكًا حقيقةَ ما حوْلَه.

درَس الشيخُ رحمه الله في المدرسة الابتدائية بشَقْراء، وكان مديرُها ذلك الوقتَ الشيخَ عبد المجيد الجَبَرْتي – رحمه الله – الذي أصبح إمامًا للمسجد النبويّ بعد ذلك، وبعد أن أتمّ الشيخ الدراسةَ الابتدائية التحق بدار التوحيد بالطائف، ثم كلية الشريعة بمكّة المكرمة، وفي السنة الثالثة من دراسته بها طُلب للتدريس بالمعهد العلميّ بالرياض، فصار مدرِّسًا وطالبًا في الوقت نفسه، فكان يُدرِّس حتى إذا جاء وقتُ الاختبار ذهب ليُختَبر، وكان يأتي إلى الطلاب في محلِّ إقامتهم بمكّة، ويطَّلعُ

(*) مدينة سعودية تقع على بعد نحو ١٩٠كم شمال غرب العاصمة الرياض، وتبلغ مساحتها نحو ١٦ كم، ويبلغ سكانها نحو ٢٦٦٥١ نسمة.

على المنهج المطلوبِ للاختبار على وجه السرعة - وهو جالسٌ القرفصاءَ - ثم يدخل للاختبار، ويحصل على المركز الأول!.

ولما تخرّج رحمه الله في كلية الشريعة عام ١٣٧٤هـ سافر إلى مصر - مع كثْرة فُرَص الوظيفة المهيَّأة لمن يُحصِّل مثلَ ما حصَّل - والتحق بمعهد الدراسات العربية العالية، فاتصل بكبار علمائها ومفكّريها، مثل عالم الفقه المقارَن والقانون الأستاذ الدكتور السنهوري باشا(*) رحمه الله، وقد أخبر الشيخ عن نفسه في كتابه (خاطرات في المصرفية الإسلامية) بأنه: حَظِي بالتتلمُذ على الأستاذ السنهوري لمدة سنتين في مادة الفقه المقارن، وتلقَّى منه دروسه التي ألقاها في هذه المادة وضمَّنها كتابه القيم مصادر الحق في الفقه الإسلامي (دراسة مقارنة بالفقه الغربي)، وبجانب ذلك كان من حظِّه الاشتراكُ في الجلسة الأسبوعية التي ظلّ الأستاذ السنهوري يعقِدُها طَوالَ تلك المدة باسم «حلْقة البحث»، ويَقصُر حضورَها على بِضعةِ طلّابٍ لبحث موضوعاتٍ في الفقه المقارن بطريق المناقشة الحرة.

ونَقل بعضُ مُحبّي الشيخ(**) أنه - رحمه الله - قال له في هذا الصَّدد: (كنتُ أحضر جلَساتِ السنهوري وكان لا يَعرفني، وبعد جلسات معدودةٍ دخل ووزَّع علينا ورقةَ اختبار؛ لينظر في مُستوى الحاضرين، وكنتُ لستُ كبقية الحاضرين الذين أمضَوْا مدّةً في الحضور؛ فهذه من أوائلِ جلساتي عنده، ولم أَكُن أمضيتُ عنده مدّةً بعدُ، فاستحييتُ، وأخذتُ ورقةَ الاختبار، وأجبتُ عن الأسئلة، فلما جاء الدرس القادم قال: أين صاحبُ هذه الإجابة؟ فرفعت يدِي على استحياء، فأثنى على الإجابة بشكل ملفت! وبعدها كان يخُصني بمزيدِ عناية، جزاه الله خيرًا).

(*) هو عبدالرزاق السهنوردي (١٨٩٥ - ١٩٧١م) أحد أعلام الفقه والقانون في الوطن العربي.
(**) هو الدكتور محمد بن فهد بن عبدالعزيز الفريح.

بعد أن أمضى ما يقاربُ خمسَ سنوات أخذ الماجستير، وكان عنوانُ بحثه «تصرُّف الفُضولي»، وقد أطال مدّةَ دراسته في مصر برغبةٍ منه؛ حتى يتمكَّن من قراءة ما يستطيع قراءتَه، وكان مشغوفًا بالقراءة، فقرأ ما يستطيعُ قراءته من الكتب بمكتبة الأزهر، ودار الكتب المصرية، والكتب التي في سُور الأزبكية(*)، وذكر أخوه سعد الحصين: وكان أيضًا يَدرُس الفرنسية والإنجليزية في معهد «برلتس».

بل كان حبُّ القراءة والاطِّلاع دَيْدَنَهُ منذُ الصغر؛ إذ قال في مقال (كُن كما أنت): (كنتُ مُغرَمًا في مرحلة المراهقة بقراءة كتبِ الصِّحة النفسية)، واستمرَّ على هذا الشَّغَف بالاطّلاع المتنوِّع إلى آخِرِ عُمره، فلا يُرى في غالب أحوالِه إلا وبيدِهِ كتابٌ يُطالعه، والقَصصُ في هذا كثيرة، وهذا مما زاد في حُسْن تصوُّره وثُقُوبِ ذهنِه.

ويذكُر الشيخ رحمه الله بعض المشايخ الذين تلقَّى منهم العلم، بقوله في محاضرةٍ له عن جهود الحرمين في الإفتاء: (وكان للمتكلِّم الحظُّ في التلمذة على يد إمامَيْن من أئمة المسجد النبويّ، هما الشيخ عبد المجيد حسن جَبَرْتي(**) رحمه الله، الذي وُلد ونشأ في الحبشة، وكان من الطبيعيِّ أن يتمذهب بالمذهب السائد في بلدِه أي المذهب الشافعيّ، والشيخ محمد علي ثاني(***) رحمه الله الذي وُلد ونشأ في نيجيريا، وكان من الطبيعيّ أن يتمذهبَ بالمذهب السائد في بلده وهو المذهبُ المالكيّ، وعلى يد أحد أئمة الحرم المكيّ، وهو الشيخ محمد أمين فودة(****) رحمه الله).

---

(*) هو مجموعة من المحال الصغيرة التي يجمع بينها جميعًا بيع الكتب المستعملة وشراؤها، ويقع بالعتبة في القاهرة.

(**) هو عبدالمجيد بن حسن بن أحمد بن مصطفى الجبرتي (١٣٣٢ - ١٤١٨هـ) العلوي نسبًا، من قبيلة أد كبيري من مقاطعة جمة في الحبشة، المدني مجاورة، وهو إمام وخطيب للمسجد النبوي وعضو هيئة كبار العلماء.

(***) هو الشيخ محمد علي ثاني (١٣٣٩ - ١٤٣١هـ) عمل مدرسًا في مدارس عدة، وفي المسجد النبوي عمل مدرسًا وإمامًا محتسبًا.

(****) ولد عام (١٣٠٧ - ١٣٦٥) وقد عمل مدرسًا بالمسجد الحرام منذ (١٣٣٠ - ١٣٥٦هـ).

وكسَـب كذلك من سفرِه للدراسة في فرنسا خبرةً وبصيرةً بما عليه الغرب، ووقف على حقيقةِ ما هم عليه في قوانينهم وحياتهم.

فلم تكن معرفتُه بالغرب صنيعةَ إعلام، بل كان له ميزانٌ لما هم عليه، يأخذ النافعَ ويدَعُ الضـارّ، فتصـرّف مع الفكر الغربيّ وقوانينِه تصرُّفَ الخبيرِ الحاذق، لا سيَّما إذا علمنـا أنه كان على علـم بلغاتهم، وقد حباهُ الله تعالى جَلَـدًا وهمّة في الاطّلاع على كتاباتهم، فلم تأسِـرْهُ ظواهرُ الألفاظ عن الوُصـول إلى الحقائقِ والمعاني؛ فكان يَبني تَصـوُّرَهُ وقناعاتِه على قـراءاتٍ عميقةٍ بلغة القوم، ضـاربةٍ بجُذورها في عُمق التاريخ، مع وَعْيٍ لنصـوص الشرْع وأصـوله، وتصوُّرٍ صـحيحٍ لواقع الأمّة، وإدراكٍ جازمٍ لمكر أعدائها بها، سـاعدَهُ على ذلك اتصالُه المباشرُ بالزعماء والمفكِّرين، ومعايشتُه للعامة، ومعاصرتُه للتحوُّل المؤثر في حياة الأمة إلى وفاته سنة ١٤٣٤هـ.

فتفتَّقت هذه المعرفةُ عن اسـتعلاءٍ على زيفِ الأنظمة الوضـعية، وأدرَك ضـخامةَ الرّقِّ المضـروبِ على العالم كلِّه من هذه الأنظمة، والقوانينِ الدَّوْلية التي يُتحكَّمُ بها في شؤون الناس كافة.

فكانت أقوالُ الشـيخ - رحمه الله - وأعمالُه منصـبّةً على بيان ما أصـاب الناسَ من هذا الرقّ على تنوُّع صُـوَرِه، فلا يكادُ يخلو كتابٌ كتَبَهُ أو مقالٌ سـطَّرَهُ أو مجلسٌ جلسَـهُ أو محاضـرةٌ ألقاها من التّنبيهِ إلى هذا المعنى، بل ما حُكي عنه من القَصَص في سيرتِه شاهدٌ على ذلك.

فنحـن إذًا مع فكرٍ حكيمٍ مـن الحكماء عزّ وجودُ مثلِه، يعيشـ الحقيقة لا الوهم، وإن من أنبل المبادئ وأعظمها أثرًا أن يعيش المرء وفق ما يؤمن به، وليس وفق ما يرى الناس؛ فالغالب أن الناس يعيشون حياة القطيع؛ لأنها أسهلُ، ولا تحمِّل الفرد صعوبة مخالفة المجموع.

وهذا المؤلَّفُ محاولةٌ نرجو أن تكون كاشفةً بعضَ مكوِّناتِ فكر هذا العالمِ الجليل، والحكيـمِ الماهر، منبئةً عن طبيعة تعامُلِه مع المعرفةِ، وتحليلِه للنظريات والظواهر، مظهرةً بعضَ صُـوَر جهادِه في إصـلاحِ الفساد واستئصـالِ داءِ التبعية الذي لا تفكير معه، والأمرُ لله.



obeikandl.com